الدرس (٠٠٥) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فلا نزال في باب الإخلاص وإحضار النية في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية، وهو الباب الأول من كتاب رياض الصالحين لأبي زكريا النووي رحمه الله. نعم قال المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى:

١٢ - (وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ الْمَبِيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَى بِي طَلَبُ الشَّجَرِ يَوْمًا فَلَمْ أَرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدِي أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرِقَ الفَجْرُ وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ، قَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ -وفي روايةٍ: كُنْتُ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ- فَأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا - وفي رواية: فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ

رِجْلَيْهَا- قَالَت: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا. وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ وأَعْطَيْتُهُمْ أجْرَهُمْ غيرَ رَجُل واحدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ، أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَسْتَهْزِئْ بِي! فَقُلْتُ: لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

هذا الحديث العظيم فيه قصة هؤلاء النفر الثلاثة ممن كانوا قبلنا حيث آواهم المبيت إلى غار فدخلوه.

ومعنى «آواهم المبيت» أي: أدركهم المبيت، أو وقت البيات إلى غارٍ فدخلوه.

«فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ».

وهذا فيه مشروعيَّة التَّوسُّل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بصالح العمل، كما صنع هؤلاء، كُلُّ واحدٍ منهم توسَّل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بصالح أعماله.

«قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَى بِي طَلَبُ الشَّجَرِ يَوْمًا فَلَمْ أَرِحْ عَلَيْهِمَا -أي: أرجع- حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا».

والغَبُوق: هو ما يُشرب من حليب الماشية في المساء.

«فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَأَنْ أَغْبِقَ -أي: أُقَدِّم عليهما في الغبوق- قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدِي أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرِقَ الفَجْرُ وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا».

لنتأمَّل في هذا البِرِّ العجيب! لـم يوقظ والديه، بل آثر بقاءهما مرتاحين نائمين، ولـم يُقَدِّم أبناءَه عليهما، مع أنَّـهم يبكون عند قدميه من الجوع، فبقي اللَّيل كُلَّه وقدح الحليب في يده ينتظر استيقاظ والديه، فلـمَّا استيقظا قدَّم لهما غبوقهما فشربا.

«فقال حينئذ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ، قَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ -وفي روايةٍ: كُنْتُ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ- فَأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ -أي: شدَّة وحاجة- فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ -من الذَّهب- عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا».

أي: تُمَكِّنه من نفسها، وقد كان من مُدَّةٍ طويلةٍ يُرَاودها فتأبى وتـمتنع، ولكن لشدَّة الحاجة الَّتِي كانت فيها قبلت، فأعطاها عشرين ومائة دينار.

«قَالَ: عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا - وفي رواية: فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا- فَقَالَتِ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا».

هذا الانصراف الَّذِي كان منه مع تلك الرَّغبة وتلك المحاولات المتعددة؛ كان لأجل الله عَزَّوَجَلَّ، عندما ذكَّرته بالله، وقالت له: اتَّق الله، فنهض ولـم يقارف تلك الفاحشة، وترك لها ذلك المال، فقال مُتَوَسِّلًا إلى الله بهذا العمل الصالح: «فَاللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا. وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ» أي: أناس يعملون عنده بالأجرة.

«وأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غيرَ رَجُل واحدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ -أي: نمَّيتُه- حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ، أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَسْتَهْزِئْ بِي! فَقُلْتُ: لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا».

وهذا مقام عظيم في الوفاء وأداء الحقوق، وأكثر النَّاس يماطل في الحقوق ولا يُؤَدِّيها، وإذا أدَّاها ربَّما أدَّى بعضها ولم يُؤَدِّ الباقي، أو يُؤَدِّيها بعد لأيٍ وجهد جهيد ومطالبات، وهذا الرَّجل أدَّى هذا الحقَّ بهذه الصِّفة العجيبة، نَمَّاه وثَمَّره حتَّى أصبح إبلًا وبقرًا وغنمًا ورقيقًا، ثم قال: خذ هذا كلَّه فإنَّه أجرك.

لم يُصَدِّق الأجير، قال: تستهزئ بي؟! قال: لا أستهزئ بك، فأخذه كلَّه فاستاقه، فلم يترك منه شيئًا.

فتوسل هذا الثالث إلى الله عز وجل بعمله الصالح هذا « **فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١)).

لشَّاهد من هذا الحديث: أهمِّيَّة الإخلاص في التَّقرُّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقصده وحده جَلَّ وَعَلَا بالأعمال؛ لأنَّ كُلَّ واحد من هؤلاء كان يقول بعد ذكر وسيلته: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ**»، «**ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ**» أي: مخلصًا لك، ومُتَقَرِّبًا بذلك إليك، أحدهم وسيلته بِرُّه بوالديه، والآخر وسيلته عفَّته عن الزِّنا، والثَّالث وسيلته حفظ الأمانة وأداء الحقوق، وكُلُّ واحد منهم كان يقول في توسُّله: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ**» لأنَّ الله عز وجل لا يقبل من العمل إلَّا ما كان لوجهه، وقصد به التَّقرُّب إليه عز وجل.

وفي هذا: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سميع الدُّعاء، لا يخيب مَن دعاه، ولا يَرُدُّ مَن ناداه، وأنَّ أهل الإخلاص والصِّدق مع الله، وحسن الالتجاء إليه، ومَن يحسنون التَّوسُّل إليه بالتَّوسُّلات المشروعة؛ يفوزون بمثل هذه الإجابة العظيمة، والعون والتَّيسير والتَّوفيق، بخلاف حال مَن اختلطت عليهم الأمور في باب التَّوسُّل، فأخذوا يتوسَّلون بتوسُّلات لا أصل لها، وما أنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها من سلطان، ففرقٌ بين مَن يُوَفِّقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهذه الوسائل الشَّرعيَّة،

---

(١) رواه البخاريُّ (٢١٠٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

وهذا الإخلاص، وهذا الإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيفوز بهذه الثِّمار، وبين مَن هو في توسلاته في أمورٍ مخالفةٍ لشرع الله، ومباينةٍ لهدي رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

قال المصنف رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث في صحيح مسلم: استدل أصحابنا بهذا على أنه يُستحبُّ للإنسان أن يدعو في حال كربه وفي دعاء الاستسقاء وغيره بصالح عمله، ويتوسل إلى الله تعالى به؛ لأن هؤلاء فعلوه فاستُجيب لهم، وذكره النبي صلى الله عليه وسلم في معرض الثناء عليهم وجميل فضائلهم، وفي هذا الحديث فضل برِّ الوالدين، وفضل خدمتهما وإثارهما عمن سواهما من الأولاد والزوجة وغيرهم، وفيه فضل العفاف والانكفاف عن المحرمات، لاسيما بعد القدرة عليها والهم بفعلها، ويترك لله تعالى خالصاً، وفيه جواز الإجارة وفضل حسن العهد وأداء الأمانة والسماحة في المعاملة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فهؤلاء الثلاثة سألوا الله وتوسلوا إليه بأعمال البر، فالأول أخبر عن برِّه بوالديه برًّا عالياً تاماً أكمل البرِّ وأحسنه، والآخر أخبر عن عفته التامة الكاملة، وعن همته العالية، والآخر أخبر عن أداء الأمانة على الوجه الأكمل الأتم.

وحاصل القول: أنَّ هذا الحديث، وهو خاتمة الأحاديث في باب الإخلاص، حديثٌ عظيم في بيان مكانة الإخلاص، وعظيم ثوابه، وأنَّ الأعمال الَّتِي يقوم بها العبد خالصةً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تُعَدُّ من أعظم الوسائل الَّتِي يحصل بها تيسير الأمور، وتفريج الكربات، وتحقيق الرَّغبات، والنَّجاة أيضًا من سخط الله، والفوز بثوابه سبحانه.

قال الله تعالى: ((وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين))، وقال تعالى: ((إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص))، وقال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم: ((قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه))، وقال سبحانه له صلى الله عليه وسلم: ((قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين))، وقال تعالى: ((الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا)).

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قول الله تعالى: ((فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)).

وقال تعالى: ((ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن))، فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله، والإحسان فيه: متابعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقال تعالى: ((وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا))، وهي الأعمال التي كانت على غير السنة، أو أريد بها غير وجه الله. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: {إنك لأن تُخلَّف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله تعالى إلا ازددت به خيراً ودرجة ورفعة}. وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {ثلاث لا يغل عليهنّ قلب مسلم؛ إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم}.

والإخلاص أساسٌ الأعمال، فالعمل الصَّالح لا بُدَّ أن يُرَاد به وجه الله تعالى؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل من العمل إلَّا ما أُرِيد به وجهه، فالإخلاص أصل الدِّين، وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدِّين، به أرسل الله الرُّسل، وأنزل الكتب، وإليه دعا الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وعليه جاهد، وبه أمر، وفيه رغَّب، وهو قطب الدِّين الَّذِي تدور عليه رحاه.

ومن يأتي بالعبادات بلا إخلاص فإنها تذهب عليه سدى، وقد ضرب الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتابه «الفوائد» مثالاً جميلًا لذلك لحال مَن يعمل بلا إخلاص، فقال: «العمل بغير إخلاصٍ ولا اقتداء، كالمسافر يملأ جرابه رملًا، يثقله ولا ينفعه»، وهذه كلمة عظيمة، فالَّذِي يعمل بلا إخلاص، أعماله تأخذ منه جهدًا ووقتًا، ولكنَّه لا يحصِّل عليها ثوابًا؛ لأنَّ الثَّواب إنَّما يكون على العمل الَّذِي ابْتُغِي به وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

رزقنا الله أجمعين الإخلاص في الأعمال والأقوال، وهدانا إليه صراطاً مستقيماً؛ إنه تبارك وتعالى سميع قريب مجيب، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.